المعايير العقائدية في تقدير الموقف الاستراتيجي للأمم

من كتاب

مشروع تمكين الأمة المسلمة

الإصدار الثاني

تأليف
حسن أحمد الدقي



أولا: المعايير العقائدية في تقدير الموقف الاستراتيجي للأمم

لا يسع الباحثون في موضوع المشروع الإسلامي، إلا أن يعملوا على دقة وتكامل الأدوات المنهجية العلميَّة، التي يستخدمونها في بحوثهم، لبلورة الرؤى في ذلك المشروع، ولا يمكن اعتماد تلك المنهجية بدورها، إلا بالتزامها قواعد الشرع والأحكام الفقهية، لتقرير توجهات البحوث في هذا المجال، ومنه الموضوع الذي بين أيدينا، كمقاربة للوصول إلى تقدير دقيق للموقف الاستراتيجي للأمم، في هذه اللحظة الدقيقة من الزمن، وتحديد طبيعة العوامل التي تتحكم في تصرفات الأمم المُكَوّنِة للنظام العالمي؛ لأننا إن لم نفعل فالتيه في انتظارنا بالضرورة، كما تاه بنو إسرائيل، بسبب عدم وِحدة المنهج المستخدم في فهم النظام العالمي، ولأن الرؤى الاستراتيجية إذا افترقت وتناقضت في إدراكها لقضايا الأمة الكُبرى، فهي ستقود بدورها إلى الفشل في بلورة مشروع الأمة والاجتهاد فيه، وفي التوصل إلى الاستراتيجيات الأساسية، التي ينبغي العمل بها في علاقات الأمة بمشاريع الأمم، ولذلك جاء التحذير الرباني للأمة المسلمة من خطر التعامل مع الأمم الكافرة، متمثلا في ما حاوله اليهود على عهد النبي ﷺ، لإيجاد منفذ لتغيير أحكام الشرع، حتى يعطيهم مكانة خاصة في علاقتهم بالمسلمين، فأبى الله ورسوله ذلك، كما ذكر أهل التفسير في سبب نزول قول الله عز وجل: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.المائدة:49، فقد ورد في تفسير القرطبي حول تفسير هذه الآية: (عن ابن عباس: اجتمع قوم من الأحبار منهم ابن صوريا وكعب بن أسد وابن صلوبا وشأس بن عدي وقالوا: اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا: قد عرفت يا محمد أنا أحبار اليهود، وإن اتبعناك لم يخالفنا أحد



من اليهود، وإن بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك، فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك، فأبى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية [1].

ولا يعني ذلك إهدار القراءات المعاصرة، التي تُعنى بالتحليل والدراسات المقارنة، في مجال تقدير الموقف الاستراتيجي للنظام العالمي، والاستفادة منها في قراءة مستقبله ومستقبل القوى التي تقوده، وإنما ينصرف قصد هذه المقدمة، إلى ضرورة البدء بتأسيس رؤية شرعية ومنهجية، في ميدان العلاقات الدولية، حتى تكون الأمة المسلمة رأسا وازنا في المعادلة الدوليَّة، لا ذيلا -حاشاها- يدور على موائد البشر.

وفيما يلي استعراض لأهم المعايير الشرعية والعقائدية، في فهم وإدراك طبيعة النظام العالمي، ومواقف الأمم التي تتحكم فيه، وموقف الأمة المسلمة وأدوارها العالمية في العلاقات الدولية، مع العلم بأن نطاق هذه المعايير، يشمل علاقة الأمم بأمة الإسلام من جهة، وعلاقات الأمم فيما بينها من جهة أخرى:

- **معيار "التألُّه والطاغوتية" في النظام العالمي ومكوِّناته:**

فإن أعضاء مجلس الأمن الخمسة "الدائمين"، قد جعلوا لأنفسهم صفة هي من صفات الإله العظيم جبار السموات والأرض، وذلك عندما خصوا أنفسهم بصفة، نقلتهم من إطار البشر إلى إطار "التألُّه"، عبر "الحق" الذي منحوه لأنفسهم وهو حق الاعتراض "الفيتو"، فهم يعترضون على البشر جميعا ويُخضعونهم لمحاسبتهم، وفي آن واحد لا يخضعون هُم لأي مبدأ بشري تعارفت عليه الإنسانية، فإن من أخص صفات الإله العظيم المتنع، أنه كما أخبر عن نفسه عز وجل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء:23، فهؤلاء الخمسة "الكبار" لا يرون أحدا أعلى منهم، فهي مقولة فرعون: (أنا ربكم الأعلى) ومقولته الأخرى: (ما علمت لكم من إله غيري)، وبذلك فقد استحق الخمسة الكبار الصفة الثانية بعد التأله، وهي صفة الطاغوتية، فهم يوجبون على أهل الأرض كلها، السمع والطاعة والخضوع لهم في كل

(1) تفسير القرطبي.



شؤونهم؛ والطاغوتية في تعريف الشرع الإسلامي كما فسره ابن جرير الطبري في قول الله عز وجل: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ البقرة:256، بقوله: (والصواب من القول عندي في "الطاغوت"، أنه كل ذي طغيان على الله، فعُبِد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له، إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطانا أو وثنا أو صنما أو كائنا ما كان من شيء) [1].

وبذلك انعقدت صفتا "التألُّه والطاغوتية" في النظام العالمي أو الأمم المتحدة، عندما منح رؤساء الدول الثلاث، أمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفيتي، أنفسهم "حق النقض الفيتو" في مؤتمر (يالطه) عام 1945م، ضمن ترتيباتهم لإعلان الأمم المتحدة، ثم ألحقوا بهم فرنسا والصين، لكي يصبح عدد "الآلهة" خمسة، وهم الذي يوصفون بالأعضاء دائمي العضوية في مجلس الأمن، وبالتدقيق في مُترتبات هذا "الحق"، وهو حق الاعتراض كما أطلقوا عليه، فإننا يمكن أن نسجل الحقائق التالية التي ترتبت عليه:

الحقيقة الأولى: أن مؤسسي الأمم المتحدة جعلوا أمم الأرض ودولها في كفة، وجعلوا أعضاء مجلس الأمن الخمسة الدائمين في كفة أخرى راجحة، بينما وضعوا المبدأ التالي في إعلان الأمم المتحدة: (تقوم الهيئة على مبدأ المساواة في السيادة بين جميع أعضائها) [2]، فكيف يمكن تحقيق بمبدأ "المساواة" بين أعضاء الأمم المتحدة، وبإمكان عضو واحد من أعضاء مجلس الأمن الدائمين تعطيل أي قرار لها، من خلال استخدام "حق" النقض الفيتو على ذلك القرار! ولو وافق عليه كل أمم ودول الأرض قاطبة وبلا استثناء!

الحقيقة الثانية: انتقال مسألة المعيارية في تعريف ووزن المبادئ الأخلاقية التي يعرفها البشر، إلى "معيارية" خاصة يضعها ويعتمدها أعضاء مجلس الأمن الخمسة

(1) تفسير ابن جرير الطبري.

(2) نص المادة 2/1 من الفصل الأول من ميثاق الأمم المتحدة.



الدائمين مجتمعين ومتفرقين، فالعدالة ما اعتبروه هم عدالة أو ما اعتبره أحدهم عدالة وكذلك بقية المبادئ الأخلاقية الأخرى.

الحقيقة الثالثة: كما تتحقق الوصاية الكاملة على البشرية من خلال هذا القيد وهو قيد مزدوج يتضمن الاعتراض والامتناع، ومصادرة حرية الأمم والشعوب في أخطر قضاياها، في جميع المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية، وبالتالي يكون في أيدي أعضاء مجلس الأمن الدائمين تحليل وتحريم الأفعال، وفق ذلك "الحق" وهي الصفة التي تجعلنا نقول بأنهم قد وضعوا أنفسهم "آلهة"، يُحاسبون البشر وفق ما يرون، ولا يتيحون لأحد من البشر أن يحاسبهم على أي فعل أو جرم ارتكبوه، وإن هذا المستوى من التألُّهِ لم يسبقه إليهم أحد لا في التاريخ ولا في الجغرافيا، ذلك أنه ومن خلال السيطرة التي فرضوها على البشر، وتقاسمهم للأرض فيما بينهم، فإنه لا يستطيع فرد من البشرية أن يمارس دينه أو يكسب معاشه دون أن يأذن له أحد الخمسة الكبار أو يخضع له.

وقد انعكست تلك الحقائق على المؤسسات التي نتجت عن هذا النظام الذي سُمِّيَ بالنظام العالمي، كالجمعية العامة للأمم المتحدة التي أصبحت مجرد منبر شكلي لا قيمة له، في ظل سيطرة الخمسة الكبار على قراراتها، وتولّي تطبيقها أو تعطيلها، وكذلك الأمانة العامة والأمين العام للأمم المتحدة، والمبعوثين الدوليين، ومحكمة العدل الدولية، والمؤسسات الاقتصادية العالمية التي نشأت في تلك المرحلة، كصندوق النقد الدولي وغيرها، فإنها مارست أدوارها منذ عام 1945م وحتى وقتنا الحالي، في ظل هيمنة وسيطرة الخمسة "الآلهة" الكبار، فما وافقوا عليه تم تطبيقه وفق معاييرهم هم، لا وفق معايير البشر، وما لم يوافقوا عليه تم تعطيله.

- **معيار ظهور دين الإسلام على الدين كله:**

وقد تأسس هذا المعيار على ما قضاه الله عز وجل من ظهور دين الإسلام على الدين كُلِّهِ في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ الفتح:28، قال الإمام ابن كثير في تفسيره: (ليظهره



على الدين كله) أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، أنه قال: إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وإن أُمتي سيبلغ مُلكُها ما زوي لي منها[1].

وإن أهم ما يترتب على مسألة ظهور هذا الدين، ظهور معنوي وظهور مادي، فأما الظهور المعنوي فيتمثل في انتصار دين الإسلام على بقية الأديان، من الناحية العلمية والأخلاقية والفلسفية والحضارية، ثم الظهور المادي على الأرض، من خلال سُنن التدافع، ومحاولة أمم الكفر على الدوام استئصال الوجود الإسلامي، واستجابة الأمة المسلمة للتحديات التي تفرضها عليها أمم الأرض، وبالتالي حدوث الظهور والوراثة، بأن ترث أمة الإسلام عواصم الأمم، كما حدث على عهده ﷺ بفتح مكة وفتح خيبر، وعلى عهد الخلفاء الراشدين بفتح فارس والروم، ووراثة الأمة بعد ذلك لمواقع الشرك، في الهند وآسيا الوسطى إلى تخوم الصين، وصولا إلى فتح القسطنطينية عام 1453م، فهذا الحكم باق لا يزول ولا يتغير، بغض النظر عن حال المسلمين وقدرتهم على بلوغه، فهم إما أقوياء فيجب عليهم الذهاب في هذا الاتجاه، وإما ضعفاء فيجب عليهم العمل على مغادرة منطقة الضعف إلى القوة والمدافعة، ولذلك نعى الله عز وجل على المسلمين المستضعفين حالهم وهم يموتون دون أن يعملوا على الهجرة وتغيير واقعهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء:97.

- **معيار التدافع والتداول الأممي الدائم على الأرض:**

فقد قضى الله عز وجل على البشر، أن يكونوا في حالة مستمرة من التدافع والمغالبة، بدوافع الدين والمصالح والهيمنة، والتي لولاها لفسدت الأرض على البشر، نتيجة سيطرة فئة أو عدة فئات من المشركين، وفرض إرادتهم الكُلِّية على البشر، وهذا ما يأباه الله عز وجل، ولا يرضاه لعباده، فكان التدافع سبيلا لصلاح الأرض والبشر، حيث يمكن أن نرى للتدافع صورتين، فأما الصورة الأولى من التدافع، فهي في حال كان أهل الحق لا يملكون دولة وتمكينا دوليا، يتيح لهم الدخول في الصراع

---

(1) صحيح مسلم من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ



والتدافع، فينحصر التدافع حينئذ بين دول الكفر والشرك فيما بينها، ويمهّدُ تدافعهم لظهور حَمَلة الحق في مرحلة تالية، كما حدث عند بدء بعثته ﷺ، حيث تقاتلت فارس والروم وتدافعتا بين يدي ظهور دولة الإسلام، كما قال الله عز وجل: ﴿الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الروم:1-5، فكان ذلك التدافع مُبشرا بظهور المسلمين وغلبتهم، ومبعث الفرح الذي ورد في الآية بسبب تزامن صراع فارس والروم وظهور الإسلام، كما ذكر ذلك الإمام القرطبي في تفسيره، قال: (ورُوى أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديث الترمذي، ورُوى أن ذلك كان يوم الحديبية، وأن الخبر وصل يوم بيعة الرضوان، قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية: وفي كلا اليومين كان نصر من الله للمؤمنين)[1].

وأما الصورة الثانية من التدافع، فهي حالة التدافع التي يأخذ أهل الحق فيها موقع الصدارة والحضور التام بين الأمم، فتكون قيادتهم للتدافع نصرة للحق، ورحمة للبشرية، ومنعا لانتشار الفساد بكل أنواعه في الأرض، كما قال الله عز وجل: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة:251، وفي آية سورة الحج في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج:40، وقد أورد الإمام القرطبي حول هذه الآية قوله: (أي لولا هذا الدفع لهُدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع، والبيع، وفي زمن

(1) تفسير القرطبي



محمد - عليه السلام – المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية)[1].

بل إن المشركين وأهل الكتاب من يهود ونصارى، لا يمكن أن يأمنوا على أنفسهم ودمائهم وكنائسهم حق الأمن، إلا في ظل ظهور الإسلام وأهله، لأن دين الإسلام هو الدين الوحيد بين البشر، الذي يلتزم أهله بمبادئ العدل والإنصاف، في حالتي الحرب والسلم في تاريخهم.

ومن الواجب الشرعي توضيح طبيعة معادلة التدافع أو معادلة الاستضعاف والتمكين، فإن الأحكام الشرعيَّة تتدرج بالأمة المسلمة بحسب كل مرحلة من المراحل الثلاث، وتتحرك على مسطرة الاستضعاف والتدافع والتمكين، دون تغيير لغاية الأمة الكُبرى وواجبها الشرعي الأول، وهو مضيها إلى التمكين، وإقامة دولة الإسلام والمحافظة عليها؛ فالقواعد الشرعيَّة تمنح المستضعفين هوامش لإدارة مرحلة الاستضعاف من خلال الضرورات، التي تقدر بقدرها، ومراعاة أحوالهم وهم يصطرعون مع الطغاة، لكن تلك الأحكام وفي آن واحد تُحرّم عليهم الاستسلام الكامل للطغاة، والدخول في طاعتهم والتسليم التام لهم، وبذلك نزلت الآيات في صدر الإسلام، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء:97، يقول الإمام البغوي في تفسيره: (الآية نزلت في ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا، منهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار) [2]، وكذلك تعطي القواعد الشرعيَّة للمجاهدين في مرحلة التدافع مرونة عالية في التعامل مع ضغوط الكُفَّار وشدة المواجهة، فيمكن لهم مهادنة بعض الجهات والاستمرار في قتال جهات أخرى، وهكذا وصولا إلى التمكين.

---

(1) تفسير القرطبي

(2) تفسير البغوي.



- **معيار شهادة الأمة المسلمة على أمم الأرض وعدالتها بينهم:**

وذلك بما قضاه الله عز وجل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ البقرة:143، فمن معاني الشهادة الواردة في الآية، أن الأمة الإسلامية هي الأمة التي تجتمع فيها متطلبات الشهادة على بقية الأمم في الدنيا والآخرة، ومنها صفة "العدل" وحفظ العدل بين الأمم، فصفة "وسطا" هي العدل كما قال ﷺ في صحيح البخاري: قال فذلك قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: (الوسط: العدل) [1].

ومن شهادة الأمة على الأمم، أن تكون مرجعية للمفاهيم البشرية المشتركة: كالحرية، والأخوة، والإنسانية، والعدالة، وغيرها من المفاهيم التي يقوم الطغاة عادة بتشويهها، وتفسيرها على هواهم ووفق متطلبات هيمنتهم وطاغوتيتهم، وخصوصا في ظل منظومة النظام العالمي، الذي نشأ بُعيد الحرب العالمية الثانية، ولا ينقذ البشر من تلك الممارسة والطغيان، إلا أمة الإسلام، ذلك أنها الأمة الوحيدة التي تلتزم بالمعايير التي تؤمن بها وتطبقها على نفسها، قبل تطبيقها على الناس، كما أمرها الله عز وجل في قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء:135، فقد ورد في دلائل تفسير الآية عند ابن كثير قوله: (ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يُرْشُوه ليرفق بهم، (فشَكَوْا إلى رسولِ اللهِ ﷺ شِدَّةَ خَرْصِه وأرادوا أنْ يُرشوه فقال: يا أعداءَ اللهِ أتُطعِموني السُّحتَ واللهِ لقد جِئْتُكم من عندِ أحَبِّ النَّاسِ إليَّ ولَأنتُم أبغضُ إليَّ مِن

(1) رواه البخاري.



عِدَّتِكم مِن القِردةِ والخنازيرِ ولا يحمِلُني بُغضي إيَّاكم وحُبِّي إيَّاه على ألَّا أعدِلَ عليكم فقالوا (أي يهود): بهذا قامتِ السَّمواتُ والأرضُ) [1].

وكذلك قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة:8، قال أبو جعفر: (يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تُقصِّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدِّي، واعملوا فيه بأمري) [2].

- **معيار الدعوة وتبليغ الحق في علاقة الأمة المسلمة بالأمم:**

فأمة محمد ﷺ قد كلَّفها الله عز وجل بأداء وحمل أمانة دعوة الأمم إلى توحيد الله وطاعته والدخول في الإسلام، فهي الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة للبشرية بعد وفاة النبي ﷺ وإلى يوم القيامة، وعلى هذا الأساس تقوم علاقة الأمة ببقية الأمم، كما أمرها الله عز وجل بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران:110، وقد أورد الطبري في تفسير الآية قول قتادة: (ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب قال (...) يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة (يشير إلى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فليؤد شرط الله منها) [3].

وعليه فإن جميع الأمم من غير المسلمين هم أمام المسلمين أمة الدعوة، وكما كان الأمر بدعوة الأمم موجها لرسول الله ﷺ، فهو منسحب على أمته من بعده إلى يوم القيامة، كما قال الله عز وجل لرسوله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ

---

(1) صحيح ابن حبان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(2) تفسير الإمام الطبري.

(3) المصدر السابق.



أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ الشورى:7، وكما أخبر ﷺ هذا الواجب العظيم في أمته وهو واجب الدعوة بقوله: (والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ) [1]، وقوله ﷺ: (من هذه الأمة) إشارة إلى كون اليهود والنصارى من أمة الدعوة.

والأمة المسلمة ملتزمة بتطبيق هذا المعيار، ابتداء من مستوى العلاقات الدولية إلى بقية العلاقات والتعاملات بينها وبين بقية الأمم، دون إكراه ولا تعسف ولا إجبار، فالأصل في دخول غير المسلمين إلى دين الإسلام أن يكون باختيار وقناعة، بغض النظر عن ظروف العلاقات الدولية ما بين حرب وسلم.

وإن الأمة المسلمة اليوم لتنتظر بشارة دخول الأمم في دين الله أفواجا كما حدث على عهد الرسول ﷺ وعلى عهد الخلفاء الراشدين من بعده، وكما بشر الله عز وجل رسوله والمؤمنين في سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ سورة النصر؛ فلا ندري أي أمم الأرض ستكون سابقة إلى الدخول في دين الله العظيم؟ هل هم اليابانيون أم الأمريكان، أم الصينيون، أم أمم أمريكا الجنوبية، أم أمم أوروبا؟ كل ذلك وارد كما حدث في التاريخ من إسلام أمم الأرض، كإسلام أمم الترك بعد ما كانوا أعداء للإسلام وأهله، فنصر الله بهم الدين وأعز بهم الإسلام.

- **معيار واجب المسلمين في رفع فتنة الكفر والشرك عن البشرية:**

وذلك كما أمر الله عز وجل بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الأنفال:39، وفي تفسير الآية ينقل ابن كثير فيقول: (عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا: حتى لا تكون فتنة، حتى لا يفتن مسلم عن دينه) [2]، ولا يُصد الناس عن دين التوحيد، فإن بقاء الأرض تحت سيطرة

(1) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رذي الله عنه.

(2)



دول الكفر يُحتِّمُ قيام أولئك الطغاة بتعبيد الناس لأهوائهم وباطلهم، كما قال فرعون من قبل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ القصص:38، فهذا هو لسان حال الطواغيت في جميع العصور وخصوصا في عصر "الآلهة" الخمسة الكبار، أعضاء مجلس الأمن الدائمين، فهم يوجبون لأنفسهم طاعة من يسيطرون عليهم، وما تلك الطاعة في الحقيقة إلا "دين" وخضوع واتباع، يقول الدكتور حاكم المطيري في كتابه تحرير الإنسان وتجريد الطغيان: (لقد كانت عبودية الشعوب للملوك والطغاة وما زالت، أبرز مظاهر الانحراف في المجتمعات الإنسانية، فقد جمع الملوك مع دعواهم الملك في الأرض بغير حق ادعاء السيادة على الخلق، وادعاء حق الطاعة المطلقة...، وكل ذلك منازعة لله في أخص خصائص ربوبيته، كما قال تعالى عن نفسه: (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) [1].

- **معيار استمرار الطغاة في بذل جهودهم لرد المسلمين عن دينهم:**

ويستند هذا المعيار إلى ما ورد في القرآن والسنة، ثم ما شهد به التاريخ والواقع، فقد أخبر الله عز وجل بأن دأب الكفار والطواغيت بجميع أنواعهم هو سعيهم الدؤوب والدائم لرد المسلمين عن دينهم كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة:217، وكما أخبر عز وجل على لسان فتية أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الكهف:20، وأما التاريخ البعيد والقريب فمليءٌ بتعدي الكفرة على المسلمين، ويكفي أن نشير إلى الأدوار التي لعبتها أمم النصارى على وجه الخصوص خلال القرون الخمسة الماضية (من القرن السادس عشر الميلادي إلى القرن العشرين) حيث تتابعت أمم النصارى في حرب

(1) د. حاكم المطيري، تحرير الإنسان وتجريد الطغيان، طبعة الكترونية ص 51-52



المسلمين وإقصائهم من مواقع السيادة، فقد بدأ الأمر بالأمتين البرتغالية والإسبانية، ثم بالأمة الهولندية والبريطانية والفرنسية، وأخيرا الأمة الأمريكية، والتي لم تأل جهدا في حرب المسلمين، ومشاركة بقية النصارى في العالم بغزو ديارهم واحتلال مقدساتهم.

وأما مرحلة النظام العالمي والطاغوتي الذي تأسس عام 1945م، فلا توجد في التاريخ قصص دامية كالقصص التي جرت للمسلمين، حيث انتهكت فيها حقوقهم، وسفكت فيها دماءهم، تحت راية الأمم المتحدة وسمعها وبصرها.

- **معيار نقض المشركين للعهود وتعمد توجيه الأذى للمسلمين:**

كما أخبر عنهم رب العالمين في قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ التوبة:8، وقد فسر الإمام الطبري قول الله تعالى (إلا ولا ذمة) بقوله: (لا يرقبون في مؤمنٍ اللهَ ولا قرابةً ولا عهدًا ولا ميثاقًا) [1]، الأمر الذي يتكرر حدوثه عند ظهور أي غلبة وسيطرة أهل الكفر.

وهذا ما نشاهده في أغلب بلاد الكُفر على مستوى العالم، كما يحدث في الصين تجاه مسلمي "الإيغور"، وعموم مسلمي الصين، فقد بلغت فتنة الحكومة الصينية للمسلمين حدا غير مسبوق، في محاولة تغيير وتبديل عقيدتهم، عبر تمزيق الأسر المسلمة وفصل الرجال والنساء والأطفال، والزج بالجميع في سجون تسع عشرات الألوف، وفصل الأطفال والعمل على تعليمهم عقيدة الكفر الشيوعية والكونفوشية، والعبث بالنساء وفرض زواجهن من عرقية الهان الكافرة، وفرض شرب الخمور على المسلمين وأكل لحم الخنزير، وإبقائهم تحت رقابة دائمة ولصيقة في بيوتهم؛ وما تفعله الهند الهندوسية تجاه مسلمي الهند وكشمير، وما يفعله عسكر ورهبان ميانمار لمسلمي الروهينجا، وحتى في بلاد أوروبا وأمريكا التي اعتقد بعض المسلمين أنها مناطق آمنة للهجرة، نجد فرنسا الكاثوليكية الحاقدة، تذهب مذهبا

(1) تفسير الإمام الطبري.



لم يسلكه أحد قبلها، من تطبيق برامج فتنة المسلمين المقيمين فيها وصدهم عن دينهم، حتى باتت تلك البرامج تقترب شيئا فشيئا مما طبقته محاكم التفتيش الكاثوليكية ضد مسلمي الأندلس.

وإن المتأمل في الاستنفار العالمي ضد المسلمين وأقلياتهم على مستوى العالم، والخوف الشديد المشترك الذي تبديه حكومات الكفر العالمي من المسلمين، من بوذ وشيوعية ونصرانية ويهودية وهندوسية وإلحاد، ليس له إلا تفسير واحد، وهو شعورهم الجماعي بأن دين الإسلام غالب ومنتصر بلا حرب، فلو تركوا له المجال لدخلت شعوبهم في دين الله أفواجا ولذلك فهم يكررون مقولة فرعون عندما قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ غافر:26.

• معيار الأخطار الوجودية على البشريَّة في ظل النظام الدولي

حيث تقود فلسفة ونظام "النيو لبرالية" زمام النظام الدولي، ورؤوسه الكبار، وفي مقدمتهم أمريكا والصين وأوروبا وروسيا، عبر "العولمة" والتوحش الاقتصادي الرأسمالي، الأمر الذي أدى إلى نمو فاحش لثروات قلة قليلة من البشر، مقابل الدفع بمليارات البشر إلى أحضان الفقر، في ظل أدوات وآليَّات اقتصادية وتقنيَّة تتحكم في شعوب العالم وحكوماتها، وتجبرهم للنزول على شروطها التي تزداد قسوة وإرهابا؛ وما ذلك إلا لسيطرة المنظومات القيمية الناتجة من العقائدية الشِّركيَّة، والتي تقود البشرية إلى فساد شامل لحياتهم ومعايشهم، كما قال الله عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم:41، يقول الإمام الطبري في تفسير الآية: (ظهرت معاصي الله في كل مكان من برّ وبحر (بِمَا كَسَبَتْ أيْدِي النَّاسِ) : أي بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما) [1].

---

(1) تفسير الطبري.

فمن خلال مراقبة أداء أغلب حكومات الأمم وأحزابها، وخصوصا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فيمكننا رؤية الأثر التنافسي في السيطرة والهيمنة بين تلك الحكومات والأمم، بالإضافة إلى تقدم المتطرفين دينيا أو عقائديا ونجاحهم في الوصول إلى الحكم في العالم، كالأحزاب المسيحية اليمنية، والأحزاب اليهودية، والأحزاب الهندوسية والبوذية، والحكومة الشيوعية في الصين وغيرهم، فإن هاذين العاملين (التنافسية على الهيمنة والمتطرفين) قد قادا العالم إلى حافة الانهيار والتهديد الوجودي للبشر، وعلى ضوء الوضع العقائدي والمبدئي يمكننا الوقوف على قائمة التهديد التالية:

- تهديد البشرية بالحرب النووية وزيادة معدلات إنتاجها على مستوى العالم، وانهيار الاتفاقيات العالمية في مجال الحد من انتشار وتجارب التسلح النووي.
- تهديد البشرية بالحرب الكيماوية والإشعاعية، وزيادة التصنيع والتجارب على مستوى العالم في هذا المجال.
- تهديد البشرية بالحرب الجرثومية وزيادة التصنيع والتجارب على مستوى العالم، ولعل انتشار مرض "الكورونا" مؤخرا يشير إلى هذا التهديد.
- تهديد البشرية بالحروب المائية، وتهديد مصادرها.
- تهديد البشرية بالتجارب السريَّة والعلنية في مجال "الذكاء الصناعي"، والذي يهدد بإنتاج أسلحة ذات قدرات تدميرية هائلة، وبالسيطرة على الأداء الإنساني والتحكم فيه، والحد من حرية البشر باستخدام الذكاء الصناعي، والتهديد بدمج القدرات البشرية بالقدرات الالكترونية، إلى غير ذلك.
- تهديد البشرية بالحروب الغذائية، وخصوصا في مجال السيطرة على الإنتاج الزراعي، عبر التجارب التعديل الجيني، الذي تقوده الولايات المتحدة على المنتجات الزراعية، وتجارب الآفات الزراعية كأسلحة حرب، وعبر مصادرة قدرة الشعوب على ممارسة الإنتاج الزراعي، والسيطرة التامة على هذا المجال.

- تهديد البشرية بالتجارب النفسية، والتعذيب والسيطرة العقلية على السجناء والأسرى، وعبر استخدام العقاقير وعمليات غسيل الدماغ، ونشر المخدرات في العالم.

- تهديد البشرية بالتجارب في مجال الأحياء والطب، وخصوصا تجارب الخلايا الجذعية، والجينات الوراثية المعدلة، والتي تمزج ما بين المكونات البشرية والحيوانية، والتي تهدد بولادة حيوان بشري، حيث تمتلك حكومات الدول الخمس الكبرى ودول صناعية أخرى كاليابان اليابان تجارب خطيرة في هذه المجالات منذ عقود وخصوصا الصين.

وقد يقول قائل: أو لا يمكن الاعتماد على الاتفاقيات الدولية، التي تتم في إطار الأمم المتحدة وغيرها من الأُطُر، لوقف هذه الأخطار والتهديدات؟

والجواب: بأن حكومات الطغيان العالمي في الغرب أو في الشرق، تعتمد برنامجين وسياستين في التعامل مع هذه القائمة من التهديدات لمستقبل البشرية، فهي من جانب تقوم بالتوقيع على الاتفاقيات الدولية ولكنها من جانب آخر وتحت مبررات "الأمن القومي" وعبر البرامج السرية التي تشرف عليها أجهزة الأمن، تعطي الضوء الأخضر للمضي في كل التجارب المحظورة دوليا، بل وسوف تمضي باستخدامها ضد بقية الأمم عندما تحتاج إليها، وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية هي رائدة هذه الازدواجية وقائدة التهديد العالمي للبشر، منذ أن قامت بإلقاء القنابل النووية على اليابان في الحرب العالمية الثانية، ثم عملت بعد ذلك على تجريب كل أنواع أسلحتها على الشعب الفيتنامي طوال الستينيات إلى منتصف السبعينيات، وصولا إلى الوقت الحاضر الذي خرجت فيه الولايات المتحدة من اتفاقية باريس للتغيير المناخي العالمي عام 2017م، وانسحابها من معاهدة الصواريخ النووية متوسطة المدى مع روسيا، مع العلم بأن الولايات المتحدة الأمريكية بررت ذلك بإقدام روسيا على تطوير صاروخ نووي عُرف باسم (إس إس سي 8).



- **معيار مواجهة الأمة المسلمة لعُلوّ اليهود وسيطرتهم على النظام العالمي:**

فإنه وفق إحصائيات الكيان الصهيوني عن أعداد اليهود في العالم فقد بلغ عددهم 14.5 مليون نسمة [1]، وهو ما يقل عن عددهم قُبيل الحرب العالمية الثانية حيث بلغ 16.5 مليون نسمة، وإن هذا العدد الضئيل، والذي لا يكاد يذكر عند نسبته لأعداد البشر في العالم، والذي بات يقترب من بلوغ ثمانية مليارات نسمة؛ ومع ذلك فاليهود يملكون تأثيرا عالميا على حكومات واقتصاديات العالم، وما ذلك إلا أن الله تعالى قد أذن بموعد سيطرتهم وإفسادهم العالمي الذي أخبر عنه في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الإسراء:4، وهي – في ظني – المرة الأولى اعتمادا على أن اليهود لم يكن لهم علوّا عالميا وإفسادا يشمل الأرض، كما حدث في هذه الحالة التي شهدتها البشرية في القرن العشرين، من السيطرة على النظام العالمي سياسيا واقتصاديا، وستكون الثانية عند التحاقهم بالمسيح الدجال عند ظهوره كإحدى علامات الساعة الكبرى، والله تعالى أعلم، والذي يهمنا في مبحثنا هذا بأن مسألة علاقة الأمة المسلمة بالنظام العالمي، إنما تحكمها من بين عدة عوامل أخرى، ظهور يهود وسيطرتهم على النظام العالمي، والذي تتأثر به الأمة المسلمة مباشرة، وذلك بسبب الحقد العقدي والتاريخي الذي يكنه اليهود للإسلام وأهله، بسبب التناقض الشديد بين دين الإسلام ودين اليهود، من حيث انفتاح دين الإسلام على التاريخ والبشرية، وقدرته الحضارية على أن يكون مظلة عالمية من العدل والإنصاف والسلم العالمي، وبين ما يمثله دين اليهود وتاريخهم من ظلامية وانغلاق، واعتبارهم لأنفسهم محل "نقاوة" وعلو لا يدانيه بقية البشر، مع وضعهم بقية البشر في رتبة أقل رتبة من الحيوان، وإجازة قتله واستعباده بإطلاق، مع العلم بأن اليهود وطوال تاريخهم ومنذ بعثة النبي محمد ﷺ، لم يأمنوا على أنفسهم ودينهم، إلا في ظل الإسلام وأهله، والأندلس تشهد بذلك،

---

(1) وفق موقع عربي21 بتاريخ 12 إبريل 2018م: https://arabi21.com/story/1085765



وتاريخ عواصم المسلمين وأحياء اليهود فيها، يشهد بذلك وتاريخ الخلافة العثمانية يشهد بذلك، لكنه الحقد الأعمى همد يهود.

وإن عالمية الدين الإسلامي، وعالمية انتشار أمة الإسلام من جهة، وما أحدثه العلو والهيمنة اليهودية من جهة أخرى، وخصوصا ممارستهم للإفساد الأخلاقي والسياسي والاقتصادي العالمي، واحتلالهم لبيت المقدس، جعل مسألة المواجهة الشاملة المباشرة وغير المباشرة، جعل الصدام بين الأمة المسلمة ويهود سمة أساسية في علاقة الأمة المسلمة بالنظام العالمي، وبالمشروع الصهيوني في فلسطين، وسيكون لهذا المعيار أثره العميق والشامل في رؤية واجتهاد المشروع الإسلامي وتطبيقاته العملية، فالأمة المسلمة هي المعنية بدرجة أولى بين البشر، بمواجهة علو يهود، لأنها المتأثر الأول بذلك العلو والإفساد، وسوف يحكم تلك المواجهة ما أخبر الله عز وجل به في قوله: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) الإسراء:5.

- **معيار القابلية الحضارية لأمة الإسلام ودورها الريادي العالمي:**

حيث لم تتمكن أمة من الأمم في تاريخ البشرية، من الاستمرار في الأداء الحضاري المتصل كما فعلت أمة الإسلام، وذلك منذ بعثة نبيها ﷺ وإلى سقوط الخلافة العثمانية عام 1924م بإعلان إلغائها على يد مصطفى كمال، فهذه ألف وأربعمائة عام من النظام السياسي والوجود الحضاري في قلب العالم، حيث امتد وجود الأمة المسلمة من المحيط الهادي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، مع الأدوار الحضارية التي لعبتها الأمة المسلمة، وكان من أهمها الوصل بين الحضارات في المجال العلمي والأخلاقي والفلسفي.

وتعود قدرة الأمة المسلمة في أدائها الحضاري والسياسي، إلى طبيعة الأصول والفقه الذي جاء به الإسلام، والتزمت به الأمة المسلمة منذ بداية نشأتها، فقد وضع رسول الله ﷺ صحيفة المدينة بين المكونات السياسية لأول دولة في الإسلام، بل هو أول دستور عرفه تاريخ البشرية، وعليه وُضعت قواعد التعامل مع غير المسلمين في مجتمع المدينة، التي بُنيت على أساس تعاقدي، وعلى أساس المواطنة، واحترام

التنوع الديني البشري، ومنع التجاوز على حقوق مكونات المجتمع، بل وتحريم الاعتداء من منطلق ديني وعقائدي.

وبذلك فقد نهضت أمة الإسلام، بدورها العالمي المميز، في العلاقات الدولية والاستقرار السياسي، من خلال امتدادها الزمني والجغرافي الوسطي، بين بقية الأمم، وحافظت على السلم والأمن الدوليين، والسلم الاجتماعي والديني، ويمكننا الاستدلال على ذلك من خلال أكثر من نموذج في التاريخ، ومن تلك النماذج نموذج التعايش بين المسلمين وبقية مكونات المجتمع في شبه القارة الهندية، حيث امتد مُلك المسلمين في شبه القارة الهندية قرابة ثمانية قرون بدأت عام 1001م وانتهت بالسيطرة التامة للإنجليز عام 1858م، فلولا حسن التدبير الداخلي والخارجي، الذي تميز به حكام المسلمين لشبه القارة الهندية وموقعها الجغرافي العالمي، لما تمكنوا من الاستمرار في الحكم والإدارة السياسية طوال هذه الفترة، مقارنة بما فعله الإنجليز بعد احتلالهم للهند، ومحاولاتهم تنصير الهنود طوال قرنين ونصف، فكان نصيبهم الفشل التام، ولم تتمكن آلة الإنجليز الحربية من فعل شيء، إلا من نتيجة واحدة غيَّرت وجه شبه القارة الهندية، وهي العمل على إسقاط الحكم الإسلامي للهند، وتسليمه للهندوس في مرحلة تالية؛ وأين الهند الآن بعد أن آلت إلى أيدي المتطرفين الهندوس، وإلى أين ستقود أفعالهم في إدارة الهند وسكانها واقتصادها وسياستها الخارجية؟

كما يمكن الوقوف على الدور الذي لعبته أمة الإسلام، في العلاقات الدولية والاستقرار العالمي، بأدوارها الحضارية طوال التاريخ، وعبر انتشارها العالمي في عمليات التبادل التجاري على مستوى العالمي في البر والبحر، وعبر طريق الحرير الذي أوصل الصين بأوروبا، وطريق التجارة العالمي البحري، الذي ربط القارات القديمة الثلاث ببعضها، آسيا وإفريقيا أوروبا، فلولا ما تمتعت به حضارة المسلمين من نظم وفقه، في إدارة العلاقات الدولية، والتجارة الدولية، لما استمرت في أداء ذلك الدور الحضاري طوال تلك القرون.

وكذا دور الخلافة العثمانية، في إقرار عمليات السلم في العلاقات الدولية، في منطقة كانت ولا زالت من أعقد مناطق الاحتكاك في تاريخ البشرية، وهي منطقة "أوراسيا" من جهة، ومنطقة آسيا الوسطى من جهة أخرى، ومنطقة حوض البحر



المتوسط، من جهة ثالثة، والعمق العربي والإفريقي، فقط كانت الدولة العثمانية، وطوال مراحل وجودها التي امتدت قرابة ستة قرون، قادرة على فرض السلم والتوازن في العلاقات الدولية، بدليل ما حدث في العالم إبان خروج الدولة العثمانية من المشهد الدولي، حيث نشبت الحربين العالمية الأولى والثانية، وقتل وجرح ما يزيد على المائة مليون إنسان في تلكما الحربين.

كما تتميز أمة الإسلام بصفتين لا توجد في بقية الأمم، وفي انطباق معيار القابلية الحضارية بين بقية الأمم، أما الصفة الأولى، فهي التنوع العرقي والبشري الذي تتميز به أمة الإسلام بين الأمم، وأما الصفة الثانية فهي الانتشار الجغرافي العالمي، الذي يميز وجودها بين الأمم، مما يؤهلها للقيام بأدوار التواصل والعلاقات الدولية، والحيلولة دون استمرار التصادم، الذي تشهده البشرية بين مجمل الأعراق والأمم، في ظل التهديد الدائم بالحرب النووية الذي يكتنف العالم، ويهدد بإفناء البشرية، بسبب سيطرة وتحكم أعضاء مجلس الأمن دائمي العضوية، الذين أعطوا لأنفسهم حق العلو والتحكم في البشر، بل وتعبيدهم الشعوب في العالم لهم، من خلال عدم الخضوع والاستجابة لأي مفهوم بشري من العدالة والمساواة والرحمة، مقارنة بأمة الإسلام، الذي قال عنها المستشرق جوستاف لوبون: (وما جهله المؤرخون أن حِلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم، وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولغتهم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم) [1].

وما ذلك إلا لأن أمة الإسلام ومنذ نشأتها، وهي ملتزمة بتعاليم دينها في جميع شؤونها ومنها الشؤون الحربية، والتي عادة ما يتخلى البشر أثناء الحروب عن كل القيم الإنسانية في تعاملهم مع أعدائهم، فيستخدمون أبشع ما وصل إليه البشر من الانحطاط الأخلاقي، ولا يقبلون من الأمم المنهزمة إلا التسليم والانهيار التام، وإجبارهم على متابعة عقيدة المنتصر، بينما أصبحت الأمة المسلمة، هي الأمة الوحيدة التي تقف شامخة، بتاريخها الحضاري، وقيمها الرفيعة، ولا فصل عندها بين النظرية والتطبيق؛ ولا تزال البشرية تقف بكل هيبة وإجلال، أمام الإعلان

(1) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مصر، مؤسسة هنداوي، 2012، ص14.



العالمي الأول لحقوق الإنسان، في تاريخ البشرية، الذي يحرم قتل النفس البشرية، وذلك عندما نزل قول الله عز وجل على قلب رسوله ﷺ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ المائدة:32، فالآية وإن كانت تخبر عن حكم فرضه الله على بني إسرائيل، لكنها تشمل المسلمين، وذلك لما أورده الإمام الطبري في تفسيرها بنقله عن الإمام عبد الله بن المبارك الذي أورد قول سليمان بن علي الربعي قال: (قلت للحسن: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس" الآية، أهي لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل! وما جعل دماءَ بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا؟) [1].

وباعتبار أحكام القتال في الإسلام، فإن الآية في حرمة النفس الإنسانية تسري أيضا على بقية البشر، وهذا ما تدل عليه عموم أحكام القتال في الإسلام، فإن أمة محمد ﷺ لا تستحل دماء المخالفين لها في الدين، إلا بقيود مشددة في حالة الحرب كما أشرت سابقا، مما يرشح الأمة المسلمة لكي تكون مرجعا للإنسانية كلها، ومظلة أمن حقيقية، يمكن أن يطمئن لها البشر، لا كما ادعى "الآلهة" الخمسة الكبار أعضاء مجلس الأمن الدائمين، والذين أوصلوا البشرية إلى حافة الهاوية والفناء، بسبب الانهيارات الأخلاقية والمبدئية التي يعانون منها، في الشؤون السياسية، كما الشؤون الاقتصادية، والحربية وغيرها.

ومما تتميز به أمة محمد ﷺ في مجال العلاقات الدولية، أنها لا تسعى لفرض الهيمنة بنفس منطوق ومنظومة القيم في بقية الأمم، فقد أنزل الله عز وجل عليها قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص:83، فقد أورد الإمام الطبري في تفسير الآية عن عكرمة يقول: (لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرْضِ وَلا فَسَادًا) قال: العلو: التجبر، وفي موضع آخر من تفسير الآية أورد عن ابن جُرَيج قوله: (لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرْضِ) قال: تعظُّما وتجبرا (وَلا فَسَادًا): عملا بالمعاصي [2].

---

(1) تفسير الطبري.

(2) المصدر السابق.



وبالنظر إلى التاريخ التطبيقي في مجال العلاقات الدولية لأمة الإسلام، نجد أنها الأمة الوحيدة التي لا تسعى لسحق ومحق بقية الأمم، كما يفعل الجبابرة ولا استعبادهم، ولا تعمل على إعلاء عرق أو قومية أو سلالة، في نظامها السياسي، كما هو معروف عند الأكاسرة والقياصرة في التاريخ، ولذلك نجد أمة الإسلام أكثر الأمم تنوعا في عرقياتها، وقومياتها، وجغرافيتها العالمية، نتيجة لمسارها التطبيقي، ومنظومة قيمها في العلاقات الدولية.

وإن استعراضا سريعا لسجل الثارات والأحقاد المعاصرة بين الأمم، في القرون المتأخرة، كفيل بإخراج أغلب الأمم من معادلة ومعيار القابلية الحضارية، فلكل أمة ثأر عند أخرى، فتاريخ الإسبان مليء بالخزي والعار، ويكفي أنهم قتلوا ما يقرب من إثني عشر مليونا من الهنود الحمر عند استيلائهم على الأمريكيتين بشهادة أحد قساوستهم [1]، وتاريخ الأمة الأمريكية فحدث ولا حرج، فهو مليء بالتجاوزات تجاه بقية الأمم، وخصوصا أمة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وما فعلته بالأمة اليابانية في الحرب العالمية الثانية، أو ما فعلته بالأمة الفيتنامية والأمة الكورية، وما فعلوه في أفغانستان والعراق، حيث بلغ ضحايا حربهم التي شَنُّوها على العراق عام 2003م مليونين وأربعمائة قتيل، وغيرها من الأمم؛ وتقف الأمة اليابانية أمام تاريخ مخز من التجاوزات بحق الأمة الصينية، وكذلك فعل الإنجليز تجاه أمم شتى في الأرض، ولا تسل عن تجاوزات ومجاز الأمة الفرنسية والأمة الألمانية، ووحدها تقف أمة محمد ﷺ بين بقية الأمم، وليس في تاريخها الحديث ولا القديم ما تخجل منه، وهو ما يؤهلها للدور الريادي بين الأمم في النظام العالمي القادم.

ثانيا: منشأ ومراحل التحولات في النظام العالمي

لا يتحقق الفهم الكامل لتاريخ وتشكُّل النظام العالمي بوضعه الجديد بُعيد الحرب العالمية الثانية عام 1945م، إلا بفهم المعطيات الأساسية التي تقدمت بين يديه قبيل تلك الحرب، ولذلك وقبل استعراض المحطات الأساسية للتحولات في النظام العالمي، فإنه يجدر بنا الوقوف على المعطيات الي سبقته وساهمت في تشكيله وهي:

(1) انظر كتاب مذابح الهنود الحمر، رسائل المطران برتولومي دي لاس كازاس، القاهرة، دار الفضيلة، 2007.